(١) رينولد نيبور:

يعد رينولد نيبور (١٨٩٢ - ١٩٧١) الرائد الذى أرسى قواعد الحكمة السياسية فى الولايات المتحدة، فقد كان قادرًا على الارتقاء بالفلسفة السياسية إلى درجة الحكمة، وممارسة تأثيره العميق على غيره من المفكرين، لدرجة أن جورج كينان دعاه «أبانا جميعًا»، كناية عن الرؤى والتقاليد الفكرية التى أرساها وسار على هديها كينان وأضرابه. فإذا كان نيبور هو الأب، فقد أخذ التلاميذ والأبناء يفسرونه، كل بطريقته، وفى شتى المجالات. فمن الشخصيات الأدبية، ت. س. إليوت، و و. هـ. أودين، وآلون باتون؛ ومن القادة السياسيين، هيوبرت هـ. همفرى، وإلينور روزفلت، وأدلاى ستيفنسون، ورالف بانش، ورادا كريشنان؛ ومن رجال التربية والتعليم، تشارلز كول، وس. هـ. دود، ووليم هوكنج، وكلارك كير، وروبرت جتشنر؛ ومن رجال الأعمال، الناشر الشهير هنرى ر. لوس، وبول هوفمان، وإروين ميلر؛ ومن قادة العمال، ولتر رويتر، وديفيد روبنسكى، وجوزيف روه؛ ومن رجال السياسة الخارجية ومفكريها، جورج كينان، وولتر ليبمان، وآرثر شليزنجر (الابن)، وأرنولد توينبي، ووليم فولبرايت، وبول كينيدى وإن كان قد انحرف عن مساره بعد ذلك.

ومن الصعب أن تجد مفكرًا أمريكيًا على تعددهم وما بينهم من فروق، لم يكن من أتباعه أو ممن يختلفون معه، لكنهم يحملون كل التقدير والإعزاز، أو يعترفون له بالقدرة على اختيار الشباب من كافة الاتجاهات فى صحفه التى يصدرها. وما من كاتب من الكتاب الذين جاءوا بعده من الليبراليين أو المحافظين أو المتطرفين أو السود أو البيض على شتى عناصرهم، أو محللى معطيات الحرب الباردة على اختلافهم، إلا وكانوا يفخرون بالتأثير الفكرى، الذى مارسه عليهم بمنتهى الموضوعية والديمقراطية. وماكان لكاتب ألّف سبعة عشر كتابًا، وكتب أكثر من خمسمائة مقال صحفى، إلا أن يقدم ما يروى عطش كل متطلع إلى فكره وحكمته.

وفى كل ما كتب نيبور، ركز على موضوعات وقضايا فكرية وسياسية وفلسفية مفضلة لديه: كالطبيعة الإنسانية ودوافع انحرافها منذ الخطيئة الأولى، وتحرى الحقيقة بين شتى المزالق المتنافرة ، والتناقض والغموض فى القوانين والشرائع، والاحتكام إلى العقل دون تسخيره لدواعى السياسة أو السلطة، أو لافتعال ذريعة أخلاقية، أو للاتجاهات الجماعية أو التوفيق بين الإهتمامات السياسية. وكان لا يتردد فى تنحية المنطق إذا ما انتهى إلى رأى قاطع لا يقبل توليد آراء جديدة، ويرضخ للعلاقات المعقدة، التى تتعارض مع طبيعة المواقف الإنسانية، كما يرى حتمية التاريخ التى

obeikandi.com

توحى بأمل وهمى يعلق عليه نيبور بقوله: «سواء حيينا أو متنا فمردّنا إلى الله تعالى».
ذلك أن عنصرى الدين والأخلاق عند نيبور هما القاعدة الراسخة للمجتمع الإنسانى، كما يجب أن يكون، وفى الأزمات السياسية لم يصرف نظره أبدًا عن ضرورة الاختيار بين الأخلاق والسياسة، فيكتب فى ٢٥ أغسطس ١٩٧٣ فى صحيفة «كريستيان نيوزلتر» عن الحرب العالمية الثانية: «ليس التذرع بالسياسة عارًا إذا كان مستقبل السلام العالمى هو الثمن»؛ إذ إن السلام فى نظر نيبور هو الحياة نفسها، أما الحرب فهى الشكل الجماعى والمادى الملموس للموت، إذ إنها تفتح أبواب الجحيم على الأرض.

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية، قال نيبور: إن تحدى الشيوعية للحضارة الغربية قد لا يتماثل مع التهديد النازى ولكنه لا يقل عنه خطرًا. وكان أول من تنبأ بسقوط النظام الشيوعى من منطلق أنه يحمل عوامل فنائه فى داخله؛ لأنه مضاد للطبيعة البشرية والقيم الدينية، ولذلك فإن التهديد الشيوعى يتهاوى من تلقاء نفسه، وإن كان يحاول التماسك والصمود أطول مدة ممكنة، وخاصة عندما يحل الجيل الثانى والثالث من التابعين له مع جماعة التكنوقراط محل الثوريين القدامى المتعصبين؛ فقد وردت هذه النبؤة المبكرة فى كتابه «بناء الشعوب والإمبراطوريات» الذى صدر عام ١٩٥٩، أى بحوالى ثلث قرن قبل سقوط الاتحاد السوفيتى واندثار المعسكر الشيوعى. وكان من الطبيعى أن يؤيد نيبور السياسة الأمريكية فى مواجهة الاتحاد السوڤيتى، كما أيد مشروع مارشال وحلف شمال الأطلنطى (الناتو)، وإن كان حرصه على السلام بين الدول والشعوب قد جعله يدين التدخل الأمريكى فى ڤيتنام.

وقد تجلت نظرته الإنسانية الشاملة منذ بداية وعيه المبكر بالحياة والمجتمع والبشر. كان أبوه قد هاجر من ألمانيا وهو فى السابعة عشرة من عمره فرارًا من قسوة أبيه وطغيان مترنيخ ونظامه الرجعى، وفى الولايات المتحدة استقر بأسرته فى مدينة سانت تشارلز بولاية ميزورى عام ١٨٩٠، لكنه تركها فى عام ١٨٩٢ إلى مدينة لنكولن فى ولاية إلينوى حين أنشأ فورد شركته لصناعة السيارات، وورث الابن عن أبيه شجاعته فى التصدى لجشع الأثرياء وانتشار الرجعية، ودعوة أبناء جلدته من الفلاحين الألمان الذين حققوا ثراءً ملحوظًا، ليكونوا أكثر حدبًا على جيرانهم وتقربًا إلى الله.

وفى الوقت نفسه، لم يعتمد نيبور على ما تلقاه من علم وفلسفة فى أكثر من جامعة التحق بها، إذ كان يؤمن بضرورة التثقيف الذاتى، فأقبل على قراءة كتب كبار المفكرين من أمثال وليم جيمس، وجوسيا رويس، ووليم هوكنج وغيرهم. وأثمر هذا التثقيف

النهم، كتابيه الأولين: «هل الحضارة فى حاجة إلى الدين؟» عام ١٩٢٧ و«أوراق من مذكرات ملحد تائب» عام ١٩٢٩، حين استقر فى مدينة ديترويت الناشئة التى أقام فيها هنرى فورد قلعته لصناعة السيارات، والذى تصدى نيبور له برغم قوته، عندما حول الناس فى جهازه الصناعى إلى مجرد آلات لينتج سيارة رخيصة الثمن، ثم نبذهم بعد ذلك ليتشردوا بلا عمل أو معاش وهم فى ربيع العمر. وكان قد استغنى عن ستين ألف عامل من مصانعه حين غير طراز سيارته إلى طراز آخر، ورفض كل توسلاتهم بحجة أن ما قام به هو لصالح المجتمع. ولكى يجابه نيبور هؤلاء السادة الأقوياء من أمثال فورد، وإن سلم له بأن ابتكاره مورد رابح من موارد المجتمع، رأى أن يطرح ويروج لأفكاره الإنسانية بأسلوب علمى واقعى بعيدًا عن النظريات من خلال إثارة التساؤلات عن أخلاقيات المجتمع، خاصة فى إطار العلاقة بين الحرية والعدالة.

لم يتوقف نيبور طوال حياته عن نقد هؤلاء الرجال ذوى النفوذ والسلطان، دون خوف من أية خسائر متوقعة، وإن بدأ بهنرى فورد رجل الأعمال القوى، فقد حوت القائمة غيره من رجال السلطة مثل وزير الخارجية الشهير جون فوستر دالاس، وأقطاب الناشرين مثل هنرى لوس، ورجال الدين مثل بيلى جراهام الذى اتهمه نيبور بأنه أصبح الملاذ الدينى للرئيس ريتشارد نيكسون، وقادة العمال المتواطئين مع رجال الأعمال.

كانت كل المخاوف التى انتابت نيبور قد لمسها بنفسه، وهى تتجسد أمامه عند انتقاله إلى نيويورك عام ١٩٢٩، مع انهيار سوق الأوراق المالية فى وول ستريت، وحلول الفقر وطابور الخبز، وبداية القحط، واكتساح المخاوف للمجتمع وإطاحتها بالكثير من عقوله الخلاقة لدرجة أنه قبل ثلاثة أيام من تنصيب فرانكلين ديلانو روزفلت فى ٤ مارس ١٩٣٣، كتب نيبور فى صحيفة «ورلد تومورو»، يقول: «الرأسمالية تحتضر، وعليها أن ترحل»، لكنه تراجع بعد ذلك عن مقولته، واعتذر عنها بحجة أنه تفوه بها تحت وطأة الأزمة المالية الطاحنة. ومع ذلك كان نيبور يرى فى المذاهب أو التوجهات السياسية والاقتصادية مجرد وسائل أو أدوات تستخدم لتطوير المجتمع إلى الأفضل، فإذا فشلت فى القيام بهذه المهمة الحضارية الضرورية، فلابد من تعديلها أو استبدالها بالآليات الكفيلة بذلك. وقد كان نيبور خلال العشرينيات من القرن الماضى، يتشيع للمذهب الليبرالى المحافظ، ثم عاد فى خلال الثلاثينيات، يفضل الماركسية للمجتمع الأمريكى، وكان أن تنقل بفكره ما بين الليبرالية والماركسية فى مرحلة تطوره بين عامى ١٩١٥ و ١٩٣٢، التى أصدر فيها كتابه «رجل أخلاقى

ومجتمع لا أخلاقى»، حين كانت فلسفته السياسية قريبة من ليبرالية القرن العشرين. وخاصة فى نتائجها العملية التى تمثلت فى إنشاء عصبة الأمم، والتسامح العنصرى، والتعاطف مع نقابات العمال. ولكنه شرع فى نبذها عندما لمس مآسى النظام الصناعى الأمريكى على الطبقة العاملة فى ديترويت.

منذ عام ١٩٢٩، أخذ نيبور يشكك فى بعض الأفكار الليبرالية، إلا أنه حين أصدر كتابه «تأملات فى نهاية حقبة» عام ١٩٣٤، كان بمثابة البداية فى تحول أفكاره. ففى عام ١٩٣٦ وفى صحيفة «راديكال ريلجن»، وكان له دوره فى إصدارها، وضع ستة مبادئ كفيلة بإقالة المذهب الليبرالى من عثرته، أولها: التخلص من الجهل بصفته مصدرًا لكل أنواع الظلم الذى لا يمكن أن يلقى سلاحه إلا بالتعليم وتدريب العقل على التفكير الذكى المتميز، وثانيها: حتمية أن تتحول الحضارة إلى حضارة أخلاقية، وثالثها: إن الأخلاق الفردية وليس النظام الاجتماعى هى أساس العدالة، ورابعها: إن أى دعوة للإخاء والنوايا الطيبة، يجب أن تكون لها ثمرتها فى النهاية، وما لم تكن لها ثمرة، فإنه يتحتم إيجادها، وخامسها: أن الخير مصدر السعادة، والإيمان به وتحقيقه هما السبيل إلى قهر الأنانية فى نفوس الناس، وسادسها: أن الحرب هى الجهل فى أبشع صوره ولابد للعقل أن يمسك بزمام الأمور.

وحين قدم نيبور هذه المبادئ الستة، قال إنها تخضع للحوار كما تحتمل الشك، فليس هناك مبدأ فكرى أو سياسى أو اقتصادى فوق المناقشة والتفنيد. فقد كان فشل الليبرالية نتيجة لعجزها عن تبين الخلاف الأبدى بين أهواء الإنسان الذاتية وعلمه الموضوعى، والتناحر المتجدد بين حياة وحياة أخرى، والجمود الذهنى فى سلوك البشر، والالتواء الذى يؤدى إلى متاهات التاريخ الإنسانى وكهوفه المظلمة؛ فالليبرالية حين بالغت فى قدرة الإنسان على قهر الطبيعة وإخضاعها لصالحه، وفى مسيرة التاريخ الإنسانى وتقدمه، قد أضعفت الانطلاقات الروحية السامية للعقيدة الدينية، وهذا داء عضال ليس من اليسير شفاؤه. ويمضى نيبور فيقول: «إن الذين يحملون الهم والمسئولية هم تلك الفئات التى تتخيل نفسها قادرة على إنجاز التحولات الحضارية من خلال رؤيتها الصائبة التى لا تخيب، فى حين أن الليبرالية لم تعد قادرة على مواجهة أزمات العصر لتصورها الساذج للإنسان ولطبيعة النظام السياسى، بعد أن صارت مجرد انفعال مذهبى لتبرير نرجسية الإنسان وسيادة الطبقة الوسطى».

ويفصح نيبور فى جانب من نقده السياسى عن الحاجة إلى فلسفة لا تتناقض مع الطبيعة البشرية للتجربة السياسية، وفى جانب آخر، عن أن ضيقه بالليبرالية قد استوحاه من الماركسية، وما عرفه من تصوراتها وتخيلاتها، التى ظل غارقًا فيها لمدة

طويلة من الزمن قبل أن ينبذها جانبًا. فقد ظل حتى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ينشد تطور الواقع الاجتماعى نتيجة لضيقه المطرد بالليبرالية، وأدى به إلى الانجذاب نحو الماركسية. فما من خلل فى الأولى إلا وجد صوابه فى الأخرى. فمثلاً فشلت الليبرالية فى أن تربط الفرد بالمجتمع رباطًا عضويًا، فى حين اتخذت الماركسية من المجتمع بداية ونهاية. وإذا كانت الليبرالية ترى أن نمو المصالح الفردية نموًا لمصالح الجميع، فإن الماركسية ترى أن ذلك ليس إلا تعبيرًا عمليًا عن أيديولوجية الطبقة الوسطى. وبينما تحجب الليبرالية صراع المصالح المتفشى بين الطبقات، تكشف الماركسية عن حقيقة الصراع الاجتماعى والاقتصادى الدائب بين الطبقات. وبينما تنادى الليبرالية بأن العدالة تتحقق فى نظام اقتصادى حر، تعلن الماركسية أن الظلم باق ما بقيت التفرقة الاقتصادية قائمة.

وعلى الرغم من تأثر نيبور بالنظرة الماركسية إلى درجة الاقتناع، فإنه منذ العشرينيات أصبح فى ريب من أكثر فروض الماركسية، ولا يطمئن إلى ما يسفر عنها. فهو يرى أن تمجيد الشيوعية يثير عديدًا من الأسئلة التى لا تجد إجابات. وفى عام ١٩٣٥، اقتنع نيبور أن الماركسية لا تقدم أكثر من صورة منقوصة، يقوضها إيمان ماركس اليوتوبى بأن هذا الصراع لن يزول إلا بالقضاء على الرأسمالية، فى حين أن الصراع من أجل القوة يتخذ صورًا لا حصر لها فى كافة المجتمعات الإنسانية، وقد نتج هذا الوهم الماركسى عن المساواة بين الصراع الطبقى والتنافسى البشرى، بينما يرى نيبور أن الصراع من أجل القوة لا ينتهى، وأنه يعبر عن ذاته دائمًا لإثبات الوجود فى مواجهة الطبيعة الإنسانية الزائلة.

وقد رجع نيبور فى عام ١٩٣٢ إلى نبوءة الفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل التى يرى فيها أن العصر الصناعى يواجه حتمًا بعض صور الأوليجاركية، أى كل حكومة تنحصر السلطة السياسية فيها، فى القلة سواء أكانت أقلية عسكرية أم دينية أم اقتصادية من الأغنياء والتجار وأصحاب الأعمال، وأردفها نيبور بسؤاله عن أى الصورتين من صور الأوليجاركية الشيوعية أو الرأسمالية أشد من الأخرى ضررًا، ومن المحتمل على المدى الطويل إذا صدقت نبوءة راسل أن تكون الأوليجاركية الشيوعية أفضل، إذ يرى نيبور أن سلطة الأوليجاركية فى النظام الشيوعى سلطة سياسية فحسب، ولن تحول أى مصالح اقتصادية خاصة بينه وبين متابعة السياسة الاقتصادية التى تتفق مع المصالح الوطنية، لكن نيبور نبذ هذه الفكرة بعد ذلك. ولم يكن تنديده بالماركسية إلا انعكاسًا لتاريخ تلك الفترات؛ خاصة فيما يتصل بتصورها

لطبيعة الإنسان الذى يتغير بتغير الحكم فى نظر الماركسية، فى حين يرى نيبور أن المجتمع اللاطبقى عليه أن يتحرر من القيود التى يفرضها على الإنسان.

وكان التوجه الذى عرض له نيبور بالنقد قبل أن يعرض له أى مفكر آخر من أقرانه، هو التجربة الروسية ذاتها. ففى عام ١٩٣٦، عرض لكتاب بياتريس وزوجها سيدنى ويب «الشيوعية السوفيتية: حضارة جديدة»، وأخذ يندد بما شابه من خلط بين الأصول والأسس القانونية والحقائق السياسية، ولم يشفع لهما أنهما كانا من نجوم الجمعية الفابية التى وضعت نهجًا علميًّا للسياسة فى بريطانيا. فإذا كانت الماركسية تذهب إلى أن الشر يختفى باختفاء الرأسمالية ودمارها، فإن الواقع الروسى كان يكذب ذلك تمامًا. وبينما تذهب الليبرالية إلى أن التعليم قادر على انتشال الناس من محنة الظروف الاقتصادية، ليصنع منهم كيانات حضارية راقية تحدوها النوايا الطيبة، فإن تجربة المجتمع الأمريكى تنفى ذلك.

وفى مرحلة متأخرة من الثلاثينيات، تصاعد هجوم نيبور على الماركسية عندما ركز على ما اعتبره طبيعتها الشيطانية كديانة علمانية. فقد أشار إلى أن ماركس وقد أمسك بطرف من الحقيقة قد خلط بين الأمور حين عزا المشكلات الجوهرية إلى أسباب خاصة لا يمكن تقنينها. وفى الأربعينيات كتب نيبور عبارته التى كثف فيها حيرته الفلسفية حين قال: «إن مأساة جيلنا الفادحة؛ هى أن البديل للرأسمالية قد أصبح علة أشد سقمًا من العلة التى تصدى لعلاجها». وهذا الفشل هو الحصاد الطبيعى لأوهام الماركسية، وليس حصادًا لإفساد الستالينية للماركسية. وهذا الوهم الذى وقعت فيه أنها عزت كل الفضائل الإنسانية لطبقة بعينها، هى طبقة البروليتاريا، وأن الشرور الإنسانية حصيلة نظام بعينه، هو، الملكية الخاصة.

وهذان الفرضان ليسا على ضلال فحسب، بل إنهما يتناقضان أيضًا فى وضع كل منهما قبل الآخر، لأن أولهما يفترض أن مجتمع الخير يخرج من أحشاء التغير الاقتصادى، طالما كان الإنسان وليدًا ضالاً للقوى الطبيعية، فى حين أن البروليتاريا حين انفردت بالقوى الاقتصادية طبقًا للمفهوم الماركسى، فقد اختارت أن تلجأ إلى السلطة المطلقة خلال فترة من المجتمع القديم، مثلها فى ذلك مثل الماركسية، التى كانت تضفى قداسة على نمط من الإصلاح الاجتماعى المقنن، الذى يتكفل بحل معين لمشكلة الأخلاق الاجتماعية، وتفترض أن طبقة بعينها هى التى خلت من الرذيلة. وليست هذه القداسة التى غلفت الشيوعية السوفيتية، وكست طبيعتها الجماعية المطلقة شيئًا عارضًا، ولكنها تدين بكل طاعة لفروضها المنطقية النظرية، فالحقيقة الجزئية تختلط بالحقيقة الكلية تقوم عليها وتديرها طبقة وكأنها إله على الأرض.

وتحولها إلى عقيدة عالمية تبدو فيها القسوة والعنف والظلم، وكأنها أدوات مشروعة فى عرف التاريخ.

وكانت الموضوعية العلمية التى يتحلى بها فكر نيبور، قد جعلته ينظر إلى المذاهب السياسية والاقتصادية على أنها مجرد اجتهادات بشرية لا تنطوى على ثوابت مقدسة، وإنما تخضع للمتغيرات بل والتقلبات التى تميز كل عناصر التواجد البشرى. ومن هنا كان نقده لكل السلبيات والثغرات التى اعتورت كلاًّ من الماركسية والليبرالية برغم تردده فيما بينهما، وتأثره بكل منهما فى بعض مراحل حياته الفكرية والسياسية التى تميزت بكثير من المرونة والرؤى الثاقبة خاصة عندما كان يدرك أبعاد الوهم الذى غلف تفكيره، والذى لم يكن يخجل من تعريته أمام الآخرين، ويسارع إلى البحث عن نظرية سياسية أكثر حياة وقدرة، مستعينًا فى ذلك بنقده للنظرية السابقة. من هنا استعاد بعض الحقائق الموضوعية عن تراث الليبرالية والماركسية، خالية من كل بريق زائف، مثل ما تقدمه الليبرالية من رؤى أخلاقية تضفى على السياسة في المجتمع رقة ووداعة، وهى ما يدعوها نيبور جوهر الليبرالية، وهى أعمق جذورًا فى تاريخها من كل مما تحفل به ثقافة البورجوازية، التى تقوم على روح التسامح والصدق وبدونها تغدو الحياة كئيبة مجردة من إنسانيتها، لم يكف نيبور عن نسبتها إلى جوهر الليبرالية فى فكره السياسى، وإن لم يكن ذلك مما تدين به الطبقة الوسطى فى تطبيقها أو تفسيرها. وعلى المستوى نفسه، كانت للفلسفة الماركسية معالمها فى فكره، وإن كان قد نبذها بشدة أكثر مما نبذ الليبرالية، فقد ظلت بعض ملامحها تسود منهجه، وإن أصر على رفض فكرة الصراع الطبقى، ما لم تشمل الصراع السياسى فى سعيه الدائب لإعادة التوازن بين ضحايا الظلم والمنتفعين منه.

موجز القول أن نيبور مزج، فى تطور فلسفته السياسية، بين عديد من الأصول السياسية والفلسفية، واستوعبها وهضمها ليفرز فلسفته الخاصة به، لدرجة أنه أصبح من العسير تبين المنابع الأصيلة لفكره، فلم يبرز منها سوى فكره الفلسفى، الذى تفرد به، خاصة فيما يتصل باستمرار ولعه بمصير الإنسان، الذى كان شغله الشاغل الذى تجلى فى سلسلة محاضراته التى ألقاها فى جامعة إدنبرة فى ربيع ١٩٣٩، وعبر فيها عن منهجه الفكرى الدقيق فى وضع نظرية عن الطبيعة البشرية والسياسة، استهلها بقوله: «كان للإنسان على الدوام مشكلته الخانقة، فكيف يتسنى له أن يفكر فى نفسه؟» ثم انساق وراء الفكر الجدلى الذى ميز أفكاره عن أبعاد الفلسفة الأخلاقية للسياسة، قائلاً إن تقرير أى شيء عن الإنسان وسماته العقلية التى تصل إلى حد العبقرية، فإنه يغذى فيه كل طاقات الجشع والتسلط والشراسة الكامنة فى طبيعته القابلة للإصابة

بجنون العظمة، ذلك أن التواضع هو المناعة الحقيقية ضد الإصابة بجنون العظمة، وبالدرجة نفسها فإن المفكر الذى يؤكد أن الناس أينما كانوا هم أبناء الطبيعة، ولا يملكون القدرة على تجاوزها أو الارتفاع فوق الأحداث، فإنه ينكر أسمى جانب فى شخصية الإنسان، وهو كيانه الروحى وتطلعاته التى ليس لها حدود، ومن هنا كان حرص نيبور على ضرورة أن يدرك الإنسان أن الخير والشر يتزاوجان فى طبيعته، دون أن يتبين الحدود بينهما.

ويعتبر نيبور التطلع إلى السلطة أبرز تعبير سياسى عن الجزء الإنسانى، فالإنسان مثل الحيوان فى شهواته وأشواقه وحرصه على البقاء، ولكنه تميز عنه بإنسانيته وروحانيته، مما جعله يستمد سلطانه من طبيعته المادية ومن روحه في آنٍ واحد. وتحتم عليه طاقاته أن ينقيها ويسمو بها إلى مستوى الروح؛ لتنطلق بلا عائق ودون حدود. ومن أجل أن يتغلب على قلقه الاجتماعى، فإنه ينشد القوة والتسلط على الآخرين فيخضعهم لسلطانه وإلا خضع لهم هو نفسه. والصراع من أجل السلطة السياسية، هو أوضح نموذج للتنافس على كافة مستويات الحياة؛ لأنه يدور على القمة وتحت الأضواء، لكنه موجود في العلاقة بين الأزواج والزوجات، وبين الآباء والأبناء، وبين الطبقات الاجتماعية، وبين الجماعات العنصرية، وبين الطوائف الدينية، وبين الأطفال وأزواج آبائهم أو أمهاتهم، وبين الدولة والشعب، وبين السلطتين التنفيذية والتشريعية فى الحكم... إلخ.

ويصل نيبور فى النهاية إلى أن المجتمع الدولى فى داخله أنانى، ومهما كان الناس فى شعوبه أخيارًا تحدوهم النوايا الطيبة، فلن يكونوا أكثر حبًّا لشعب آخر من شعبهم. ويقول فى ذلك: «المجتمع ليس إلا جماع أنانية أفراده، فتراه يحول الغيرة لدى أفراده إلى أنانية جماعية تمتلك قوة ضاغطة. وليست هناك جماعة خالية تمامًا من الأنانية، أو من المصالح المشتركة؛ ولهذا فإن السياسة أقرب إلى أن تكون مبارزة من أجل السلطة. والشعوب فى عالم السياسة، تسلك سبيلها إلى السلطة والنفوذ تحت عباءة من الولاء الجماعى العميق، الذى يمتزج بما يسود عالم اليوم من الغربة والإحباط: إن الشعوب كلها تنشد أمتها، وتتبع مصالحها القومية، وتتبدى واقعية نيبور عندما يؤكد أن الشعوب جميعًا ليست على شيء من الأريحية، وأن مصالحها الذاتية المعقولة هى الحد الأدنى الذى تقف عنده أخلاقياتها، و إن كانت مصالحها الوطنية وحماية طابعها القومى قد تؤدى بها إلى انتهاك القيم الأخلاقية السائدة. ويوضح نيبور أن الناس والدول حين ينشدون مصالحهم الخاصة، يدعون أنهم يخضعون فى هذا لمنهج من القيم.

وكان نيبور يعانى من أن عالم السياسة يزخر بالضلال والصراع المتفاقم، ولذلك لا سبيل للسلام إلا بنزع السلاح، والنسق الوحيد إليه هو توازن القوى الموقوت، وإن كان من النادر أن تتحقق المعايير الأخلاقية المباشرة فى الواقع العملى للسياسة، فلابد لرجال الدولة من أن يصلوا إلى تسوية، قد تكون غير مضمونة إلى حد ما، ولكنها تظل أفضل من غيابها الكامل. ولذلك كان نيبور رمزًا لشجاعة التغير ومواجهة الواقع، وصاحب بصمات واضحة على كل من جاءوا بعده، تجلت فى كتبه ودراساته ومقالاته التى جعلت منه واحدًا من أحكم فلاسفة السياسة المهمين؛ إذ أسبغ على السياسة الأمريكية حكمة، كانت فى أشد الحاجة إليها.

obeikandl.com